

فضيلة الثقة بالنفس

يقولون أن الثقة بالنفس فرع أخضر من شجرة الايمان وعدو للطغيان، لأن الايمان ظل العدالة في الأرض والطغيان نار الضلالة والبغض، ولا يؤتي القدرة على العفو والتسامح الا من يكره الظلم من ذوي النفوس الكبيرة والقلوب الرحيمة... والرحمة عنوان المحبة... والمحبة مدخل الى بوابة الغفران... والغفران نور الضمائر المستيقظة.

ان الثقة بالنفس (اكسير) الحياة فهي صمام الامان للبيوت من الخراب والدمار والفرقة والشتات، وهي مفتاح الفرج في ساعة المحن والأزمات، لأنها تعلم النفس رياضة الصبر على الأذى... والصدق في القول... والامانة في الفعل... والوقوف مع الحق... ومنازلة الباطل وهذه ومضة اشعاع فكري في بؤرة ظلام مطبق وصحوة نفس من غفوة أهل الكهف حيث تتجلى الحكمة في تثبيت الزمان في مكان واحد حتى يستيقظ الضمير النائم لأن المرضى بأعصابهم هم الذين يفرطون في النوم هروبا من الواقع لأن اليقظة تدفعهم للتفكير في عدم النوم.

مفتاح اليقين :

والثقة بالنفس مفتاح اليقين في رحلة الشك الطويلة في طريق البحث عن الحقيقة ولأن شهوة اليقين أقوى من حب الحياة فان الحياة بلا يقين أشبه بحالة الحكم بالاعدام مع وقف التنفيذ وشهوة البحث عن اليقين أخطر

من شهوة البحث عن الطعام والحب واللذة لأن ضعف الانسان الفطري يدفعه للبحث عن هدف يتعلق به في هذا الطوفان ولو كان الهدف عبادة صنم أو تألية بقره أو مجرد رمز لأن الثقة بالنفس هي الفاصل بين المعقول واللامعقول والوجود والعدم وهي بداية الخروج من السرداب المظلم بشوائب الغرور والأنانية التي تحجب رؤية الحقيقة وهي المصباح الذي نكتشف به أعماقنا من الداخل لنعرف لماذا نكره ونحب؟ كيف نقدم ونحجم؟ ومتى نبكي ونضحك؟ والثقة بالنفس تفتح عيوننا على شكل الموازين التي تؤكد لنا حجم أوزاننا وقيمتها الحقيقية وابعادها الأصيلة ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه وقدر الله حق قدره ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق الذي يخرجنا من الظلمات الى النور ومن الحلم الى الحقيقة عندما نحاول تحقيق التوازن بين الرغبة والواقع... الرغبة في أن نمتلك كل شيء... أن ننزع ذلك الشيء من أيدي الآخرين والواقع الذي يفرض علينا التعقل وتأجيل الرغبة وتجميدها داخل ثلاجة النفس المبرمجة بترموتر داخلي يقع في حسابه عامل الزمان والمكان والظرف والبيئة وحرية الآخرين حتى نتفادى الصدام وحرب المواجهة اليومية بين الأفراد والجماعات والجنسيات والشعوب والدول حتى لا تصبح حياتنا سلسلة من القضايا وحلقات من المآزق.

ترياق التوتر :

ان الثقة بالنفس ترياق ضد التوتر والقلق واذا كانت أسباب القلق موجودة ومفروضة علينا داخل المكاتب وفي صالات المحلات التجارية وفي شوارع المدينة وفي ردهات الفنادق فان عنصر الثقة بالنفس هو ذلك العقار السحري الذي يطوع نفوسنا لتكيف ونتلاءم ونوفق بين رغباتنا ودوافعنا... ونوطن نفوسنا على قبول الهزيمة المؤقتة من أجل نصر دائم والخسارة الطارئة في سبيل ربح مؤكد نتطلع اليه في فرصة قادمة وان خسارتنا لا تعني نهاية العالم وانما بداية تساقط المشاكل من أكتافنا الواحدة بعد الأخرى مثل التمر الخبيث من فروع الشجرة الطيبة.

اننا عندما نفقد الثقة بنفوسنا نظل منفصلين عن الواقع غير قادرين على الانصهار فيه مثل بقعة الزيت تعوم في الماء ولا تمتزج فيتعطل جهاز التكييف المركزي بداخلنا والذي يجعلنا نتجاذب مع حرارة الواقع وبالخارج دون ادارة مؤثر أو الضغط على أزرار فنجابه حياتنا بلا ثورة احباط أو محاولات هروب نفتقد روح الاعتدال في السلوك... فلا يضرنا أن نعمل ولا يسوءنا أن يعمل الآخرون وهذه من علامات الصحة النفسية أن نتعلم التنازل عن رغباتنا رغم مرارة الحرمان لتسير عجلة الحياة لا أن نقف ضد حركة الطبيعة وحكم القدر ونروض نفوسنا على الطاعة العاقلة قائلين (اللهم اني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه) فالثقة بالنفس عملية تذويب لحالة الشد والجذب عند الانسان، اننا كثيرا ما نقع فريسة حالة شد نحو أشياء نرغب فيها ويستحيل تحقيقها، وحالة جذب تجاه أخرى نهرب منها ولا نستطيع الفكك منها وعامل الثقة بالنفس هو الذي يلهب ارادتنا بنار الغريزة التي تذيب حلقات السلسلة الحديدية فتكسر القيد وتتحرك في كل الاتجاهات شعارنا (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا).

فضيلة الثقة :

ان الثقة بالنفس فضيلة لأن غاية الفضيلة تحقيق السعادة للانسان... وان كانت السعادة نسبية الا أنها في النهاية تحقيق أمنية والمؤسف قد تكون رغبة فرد على حساب الآخر بشكل من الأشكال مهما حاولنا تزيين هذه الحقيقة فلا يمكن تحقيق سعادة كل الناس في العالم المعاصر الذي نتصارع فيه الا بحدوث معجزة ليست من صنع البشر ولا توجد أي نظرية عملية أو فلسفية أو عقلانية طرقت هذا الباب الا وأكدت حقيقة (ارضاء الناس غاية لا تدرك) فاذا كان رضاء الفرد في تحقيق السعادة فان السعادة في رضاء النفس، وهذه وصفة أخلاقية نحاول صنعها من صفات موروثه في طينة الانسان، لأن الواقع يحمل لنا المنغصات في طبق شهوي خاصة لحظة اصطدام العقل الباطن بمدلولات رمزية لا نملك مفاتيح رموزها وقاموسها

رغم تشابه النفوس البشرية في معاشتها لهذا الواقع الا أنها تختلف اختلاف بصمات الأصابع في تفاعلها معه وهذا ما يعطي خصوصية كل فرد في الشعور بقوة أو ضعف الثقة بالنفس ولذا لا توجد في نظري أي نظرية عامة لتفسير فضيلة الثقة بالنفس الا مظلة القوة في الايمان بأن ما من أحد يملك لنا ضرا ولا نفعا الا بما هو مقدور علينا وهذا الايمان هو ضرورة التدريب على التفكير النفسي السوي ليستطيع كل منا اكتشاف أسباب همومه ومشاكله في ظاهرها وباطنها... في اليقظة والحلم... في الخيال والواقع والقوة والضعف. اننا في رحلة الايمان للوصول الى محطة الثقة بنفوسنا نسير عبر حواجز ومطبات تحتاج الى تكرار المحاولة وتجاوز العجز والقفز فوق الأسلاك... وقد نتعرض الى الخطر ولكننا نستطيع أن نتجاوزه اذا أدركنا أن لا بد دون الشهد من ابر النحل... ووخز هذه الابر قد يكون الحافز لأن الشعور بالألم قد يكون الدافع لاثارة اللذة في الوصول الى الهدف... وهذه فضيلة وقد قيل فيها :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاها لها لسان حسود
اننا يجب الا نشعر بالهزيمة... هزيمة الفرد أمام نفسه أو أمام الآخرين لأنها في الحالتين ضعف للثقة بالنفس وعندما تضعف ثقتنا بأنفسنا نفقد ثقتنا بالآخرين وفاقد الشيء لا يعطيه ونكون قد خسرنا المعركة الواحدة مرتين لأن الثقة بالنفس هي مفتاح السلام، الحقيقي للحرب الطاغية بين الأفراد والجماعات والقبائل والجنسيات والشعوب والدول وما شذ عن هذه القاعدة يأتي في باب الحكمة عند أبي الطيب المتنبى الذي قال :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهم